«العمانيون لايقرأون»

هدى حمد

هنالك جملة كثيرا ما تُقال، وغالبا لا نصيب لها من الصحة. ولكنها تركت أثرا كبيرا علينا، والكثير منّا صدقها وبنى عليها أفكارا مُسبقة. استحوذت علينا تلك الفكرة القاتمة والسوداء والتي تقول: «العمانيون لا يقرأون»، ولذا بات من العبث أن تكون هنالك مكتبات عامّة ومرافق للقراءة. بل إنّ هذه الجملة المجحفة، أقصت كل المحاولات التي يمكن أن تتفاءل بوجود مكتبات تُؤسس جيلا مُختلفا في ظل أنّ الكبار فات أوان أن يفعلوا.

***

وأنا في الصف الرابع الابتدائي١٩٩٠، كنتُ أجد صعوبة هائلة في الحصول على القصص والكتب والمجلات، و كنت أقول في نفسي: ربما الأمر طبيعي لأني في قرية لم يسمع بها أحد. غدا سأكبر وسأصل يوما ما إلى مسقط وسيصبح حال أطفالي أفضل مني بمئة مرة ها قد كبرت. ها أنا في مسقط حقا كما صورت لي طموحات الصغر، وهاهم أطفالي في عام ٢٠١٦ ما أن تنتهي حصيلتهم من كتب معارض الكتاب حتى يقولوا: كم هو ممل يا ماما أن نعيد قراءة نفس الكتب لأكثر من مرة كم الأمر بائس أن نبقى في انتظار حمولة معارض الكتاب المُقبلة. رغم أنّ معارض الكتاب لا تعدو أن تكون تنفسا صناعيا، إزاء حيوية المكتبات العامّة التي حرمنا منها طويلا.

***

في عام ٢٠١٤ عندما ذهبتُ إلى البحرين لحفل تكريمنا بعد أن أُنجزتْ سبع روايات عربية في مشروع محترف نجوى بركات، كان أن جلسنا وتشاورنا في كيفية إيصال الروايات السبع إلى بلداننا العربية. كان الأمر سهلا للغاية في البحرين وفي مصر بالتأكيد، ولظروف استثنائية كان الأمر صعبا بعض الشيء في سورية. المفاجأة أنّ زميلنا الفلسطيني توفرت النسخ في بلده المنكوب بالحرب والخراب. فكان أن التفت الجميع نحوي وفي أعينهم مثل هذا الكلام: إنّ بلدا مثل عُمان وحضارة عُمان العريقة والأمان الذي تتمتع به عُمان يعني بالضرورة أنّ التوزيع سيكون مُثمرا ولكن حدثت المفاجأة عندما قلتُ لهم لا أظن أنّه يمكنكم توزيع كتابي في عُمان صُدمت الوجوه وظنوا أني أبالغ أكثر من اللازم. وها قد مرّ عامان على هذه الحادثة ولم أتمكن من رؤية كتابي في المكتبة اليتيمة والمدعوة البوردرز، ولا حتى في مكتبات القرطاسيات.

***

إنّها ليست حادثة كتابي وحسب إننا نجد في مكتبة البوردرز الكتب العربية الأكثر تعاسة، ولكن من النادر جدا أن نجد كتابا لكاتب عُماني. وعندما نسأل دور النشر لماذا نجد كتبنا في مكتبات الوطن العربي وربما خارج الوطن العربي ولا نجدها في عُمان يقولون لنا: الأمر خارج عن إرادتنا!! . لماذا نجد كتبنا في مكتبات الدول المجاورة متوفرة في أغلب المولات ولا نجدها في بلدنا. ألا يدعو ذلك للشعور بالانتقاص حقا!

***

ألا يكفي انعدام المكتبات العامّة، ومكتبة الطفل التي لم تفتتح بعد، والمشاريع الطموحة التي أعلن عن مخططاتها العشرات من المرات، ويأسنا الآن من احتمال اقامتها في ظل أزمة التقشف !!

***

عندما كنتُ أعمل صحفية في جريدة عُمان قبل سنوات، قمتُ بعمل تحقيق صحفي عن غياب المكتبات العامّة. فكان أن علق زميل عربي ضاحكا: في الوقت الذي بدأ العالم يُغلق المكتبات الورقية ويقول انتهى زمنها.. لا زلتم أنتم في صراع المطالبة بها تلك الجملة النارية جعلتني أشعر بأننا خارج الزمن فعلا.

***

كان من حقه أن يضحك إلى أن تنفجر شرايين مخه، فعمر هذه المطالبة ممتد منذ السبعينيات وحتى اليوم، مما يعني نصف قرن من الزمان. وربما سيلزمنا نصف قرن آخر ليتحقق الأمر لأحفاد أحفادنا، لأننا لا نزال مُسممين بفكرة واحدة؛ العمانيون لا يقرأون.

***

أتساءل الآن.. أي قانون، أي قوة فولاذية، أي قرار وراء تعطيل توزيع الكتب العُمانية في الداخل كل هذه العقود من الزمان؟ وإلى متى سنظل نعتمد على التنفس الصناعي في معارض الكتاب الحولية ؟ لقد التقيتُ ذات مرّة بناشر عربي وطموح رغب بافتتاح مكتبة لتوزيع الكتب في عُمان المُهيأة من كل النواحي لمشروع كهذا، فرأى الناشر الأمَرّين بأم عينه. فترك الأمر برمته وغادر.

***

حتى لو توفرت الأرضية المناسبة والخصبة والأجيال الشابة والمتعلمة والأم والأمان فإن البيروقراطية قادرة على أن تقتل كلّ شيء.

***

ها أنا الآن ٢٠١٦، أحاولُ جاهدة أن أجد منفذا لعملي الروائي الجديد سندريلات مسقط، فيتكرر الاحباط في صور بالغة البؤس حقا. ولستُ وحدي من يُكابد ذلك. بالتأكيد. فكم من الأعمال تفوتنا ما أن يُغلق معرض مسقط للكتاب أبوابه.

***

غياب توزيع الكتب يعني أن يتحول الكاتب إلى بياع؛ يبيع النسخ التي يشتريها من دار النشر، أو أن يفتح بيته ومكتبه للإهداء، وغالبا ما تميل الشخصية العُمانية الخجولة للخيار الثاني على استحياء. فليس لديهم مكان يدلون عليه من يرغب باقتناء كتبهم.

***

هنالك الكتب الفكرية والكتب المترجمة باهظة الثمن، وصاحبها ليس مضطرا للخضوع لعملية الإهداء، ففوق الظلم الذي قد يُكابده من دور النشر، يأتي القراء الذين يوما لم يتعودوا على ثقافة الذهاب للمكتبات في عُمان لشراء ما يلزمهم من كتب، لكي يطلبوا منه الكتب موقعة بالإهداء، فيصبح بين نارين بين نار الرغبة في انتشار كتابه وبين نار الافلاس الذي يدفع ضريبته وحيدا.

***

هكذا يشقُ الكاتب العُماني طريقه الصعب وحيدا بدون أن تترفق به المؤسسات. وعندما يسافر خارج جغرافيته المعزولة، يتلقى السؤال الجارح:" أووه.. ماشاء الله لديكم كُتاب حقا ومترجمون ولديكم نقاد وكتاب قصص ورواية وشعراء ومفكرون أيضا. يا إلهي هذا كثير.. لم نسمع بكم من قبل.. أين كنتم"!! فإذا كان التوزيع المحلي تعيسا، فماذا عساه يكون خليجيا وعربيا؟ أرغب في الأخير أن أقول إنّ مقولة: العمانيون لا يقرأون" كذبة كبيرة وغير حقيقية. ولو افترضنا جدلا أنّها حقيقية فإن ذلك أجدى لأن تقرع أجراس الإنذار ولأن تتحرك المؤسسات والقطاع الخاص والأيادي البيضاء لعمل المكتبات لأن القراءة تغير خارطة المستقبل وتغير الأفكار وهي ليست ترفا عابرا. ربما يقول البعض: تأخرنا كثيرا. نحن في زمن بات العالم والكتب يأتيان إلينا بضغطة زر واحدة. وإن كان ذلك صحيحا ، لا يعني أبدا أن تهمل المكتبات العامّة والتي غالبا ما تكون حيوية بالأنشطة العديدة والحوارات والمناقشات. أبعدوا أولادنا عن الفراغ وعن الأجهزة وعن المخدرات وألعاب العنف، فوحدها القراءة تفعل ذلك.

***

لا أرغب أن أبدو مُتشائمة ولكن نحن نتحدث عن ظروف العاصمة مسقط فما بالنا بالمناطق المجاورة وعُمان كما نعرف بلد مترامي الأطراف. المحاولات الصغيرة التي يقوم بها بعض الشباب هنا وهناك تبدو جيدة بعض الشيء، ولكنها لا تؤسس لمشروع جاد بأرضية صلبة كالتي نحلم بها.

***

توقفوا عن الخوف من الكتب. اتركوا جيلا جديدا ليتنفس بحرية.

حياة جندي أتم واجبه في هذه الحياة

■ في هذه المساحة نعرض في كل عدد كتاباً من الكتب التي عرضها البرنامج الإذاعي «كتاب أعجبني» الذي بدأت إذاعة سلطنة عُمان بثه في أكتوبر ٢٠١٠ . ومنذ ذلك الحين استضاف فيه معده ومقدمه سليمان المعمري عشرات القراء الذين عرضوا مئات الكتب . في هذا العدد سنعرض كتاب «تقرير إلى غريكو» للأديب اليوناني نيكوس كازانتزاكيس ■

أ. عبدالعزيز الجلاصي

«..إنه ليس سيرة ذاتية، فحياتي الشخصية لها بعض القيمة، وبشكل نسبي تماما، بالنسبة لي وليس بالنسبة لأي شخص آخر. والقيمة الوحيدة التي أعرفها فيها كانت في الجهود من أجل الصعود من درجة إلى أخرى للوصول إلى أعلى نقطة يمكن أن توصلها إليها قوتها وعنادها. للقمة التي سميتُها تسمية اعتباطية بـ«الإطلالة الكريتية». ولذلك فإنك أيها القارئ ستجد في هذه الصفحات الأثر الأحمر الذي خلفته قطرات من دمي . الأثر الذي يشير إلى رحلتي بين الناس والعواطف والأفكار..»

كان ذلك مقتطفاً من الكتاب الأدبي المهم «تقرير إلى غريكو» للأديب اليوناني نيكوس كازانتزاكيس، والذي اختار مترجمه إلى العربية الأديب السوري ممدوح عدوان أن يضع له عنوانا جانبيا هو «سيرة ذاتية فكرية». هذا الكتاب سنتناوله في هذه الحلقة بصحبة عبدالعزيز بن يونس الجلاصي عضو